مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الأول ـ المجلد الثامن والثلاثون
بغداد
رجب ١٤٠٧ هـ ـ آذار ١٩٨٧ م

جماليات اللغة العربية

الدكتور عبدالحميد ابراهيم محمد
كلية الآداب .. جامعة المنيا

لست أعني بالجماليات ، ذلك المستوى الادبي في اللغة ، والذي يعتمد على الموهبة والصناعة الفنية انه مستوى ثان ، يوفره كل أديب في لغته ، انه يضطنع من الرسائل ما يستطيع بها نقل تجربته الى القارىء وخلق الحالة الشعورية التي يحس بها ، ان اللغة حينذاك تتحول الى اداة ، كتلك الاداة عند الفنان التشكيلي ، يتلاعب بها الاديب ويحولها الى عالم جمالي ، ان العالم الجمالي حينذاك عالم مصنوع من خلق الفنان ، ويختلف من لغة الى لغة ، بل ومن فنان الى آخر .

وانما أعني بالجماليات هنا ، ذلك المستوى الأول في اللغة ، والذي يتحقق قبل تدخل الأديب ، انه مستوى من صنع اللغة نفسها ، ويتحقق في بنيتها اللفظية ، وفي تراكيبها ، وفي حروفها ، انه ليس من صنع الاديب ويخضع لذوقه ، ويتأثر بالصناعة الفنية ، انه مستوى يتحقق مباشرة مع بنية ودلالة اللغة نفسها .

وهناك ظاهرة يلاحظها كل قارئ للغة العربية ، في حد ذاتها وقبل أن تصبح أدباً وفناً وصناعة ، انها لاتكتفي بالوظيفة النفعية ، التي تنقل الدلالة من المتكلم الى المخاطب ، بل هي تحرص على أن يصحب تلك الدلالة نوع من الجمالية ، تخلقه اللغة في بنيتها وفي العلاقات بين الجملة والجملة ، والكلمة والكلمة ، والحرف والحرف ، انها لغة تعتمد على الأذن قبل العين ، وتصل

الى القارىء المتلقي عن طريق الانشاء لا القراءة ، ومن هنا حرصت في بنيتها ان تكون سهلة الالتقاط من الاذُن .

الاقاويل حول افضلية اللغة العربية في الكتب القديمة كثيرة (١) فهي لغة أهل الجنة ، وأول من تكلم بهـا آدم ، وغير ذلك من اقاويل قـد تكون بدافع الحماسة وقـد لا تخضع للتبرير العقـلي ولكن يبقى من كـل ذلك انهم كانوا لاينظرون الى العربية نظرة عادية ، على اعتبار انها مجرد اداة يومية لنقل الخبرة بين الناس ، بل كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى المستوى الفني ، الذي يتجاوز المادة الخام والخبرة اليومية .

وابن فارس يرد على هؤلاء الذين يرون البيان قد يقع بغير اللسان العربي لان كل من افهم بكلامه على شرط لغته فقد بيّن (٢) ، فيرى ان مجرد الافهام أحسن مراتب البيان ، والابكَم قد يدل بحركاته على ما في نفسه ، ثم يشير الى مستوى آخر من البيان يتحقق في اللغة العربية ، ويرتفع بها عن مجرد الافهام، وهو مستوى يختلف عن المستوى الادبي ، الذي يتحقق في كل اللغات ، انه مستوى كما هو واضح من كلام ابن فارس يتحقق في بنية اللغة نفسها وتراكيبها من ادغام وشوم وروم ومد وقلب وتخفيف واضمار وترادف .

وكثير من القدماء قد تنبه لهذا «المستوى الجمالي » في بنية اللغة ، يقول الفارابي حول ذلك كلاما منه ان اللسان العربي بنى مباني باين بها جميع اللغات من اعراب أوجده الله له ، وتأليف بين حركة وسكون حلاه به ، فلم يجمع بين ساكنين ، او متحركين ، متضادين ، ولم يلاق بين حرفين لا يأتلفان

(١) راجع الصاحبي « باب القول في ان لغة العرب افضل اللغات واوسعها ».
(٢) الصاحبي ص ١٢ .

ولا يعذب النطق بهما ، أو يشنع ذلك منهما في جرس النغمة وحسن السمع ، كالعين مع الحاء والقاف مع الكاف ، والحرف المطبق مع غير المطبق مثل تاء الافتعال مع الصاد والضاد في اخوات لهما ، والواو الساكنة مع الكسرة قبلها ، والياء الساكنة مع الضمة قبلها . « ثم يذكر ان لغة العرب » قد اسسها الله على الرونق والعذوبة وان هذا على ابواب الادغام وادخال بعض الحروف في بعض ، وكذلك الامثلة والموازين ، اختير منها ما فيه صيب اللفظ وأهمل ما يجفو اللسان عن النطق به اولامكرها ، كالحرف الذي يُبتَدَأ به لا يكون الا متحركا ، والشيء الذي تتوالى به اربع حركات او نحو ذلك يسكن بعضها (٣)

ويقول ابن المقفع وقد سمعنا لغات كثيرة وان لم نستوعبها من جميع الأمم كلغة اصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم صقلاب وأندلس والزنج ، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية اعني الفرج التي في كلماتها ، والفناء الذي نجده بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي نذوقها في أمثلتها ، والمساواة التي لا تجحد في أبنيتها (٤) .

الفارابي وابن المقفع هنا لايتحدثان عن المستوى الادبي ، الذي تكلمت كتب البلاغة بالكشف عنه ولكنهما يتحدثان عن مستوى يتحقق في بنية اللغة وتركيبها يسميه الفارابي الرونق ويسميه ابن المقنع النصوع ، ويسميه ابن فارس السمة (٥) .

---

(٣) المزهر ٢/٣٤٢ .

(٤) الامتاع والمؤانسة ١/٧٧ .

(٥) الصاحبي ص ١٢ .

كل هذه المسلمات تعود كما هو واضح من ثنايا كلامهم ، الى ما تتميز به اللغة العربية في مستواها اللفظي الاول ، وقبل ان يدرج في المستوى الادبي ، من جمال وايقاع .

يقولون ان اللغة العربية لغة الفاظ ، وانها كذلك على الا يكون هذا بالمعنى المشين الذي يلصقه بعض المعاصرين والمستشرقين باللغة العربية ، وهي في ظنهم لغة الفاظ تهتم بالترادف والتكرار والزخرفة ، وتفتقر الى عمق المعاني وخصب الخيال .

انها لغة الفاظ ، لانهـــا لا تكتفي بنقل الخبرات اليومية ، في طريقة مجردة عادية ، ولكنها تعتني بنقلها عن طريق الفاظ ، يتحقق لها النصوع والرونق والسمة . وفي علل هذا المفهوم نستطيع ان ندرك وظيفة للترادف والتكرار وما يسمونه الحروف الزائدة ، فليست العبرة في الفاظ كثيرة تبلغ الخمسين والمائة للأسد ، والمائتين للحية والسبعين للحجر ، ولكن العبرة في ثروة توضع امام المتكلـــم ، لكي ينتقي منهـــا ما يهـــديه اليه ذوقه ان العبرة كما يشرح السيوطي ، وهو يتحدث عن فوائد الترادف ، (٦) في التوسع في طرق الفصاحة وأساليب البلاغة في النظم والنثر وذلك لان اللفظ الواحد ، قد يتأتى باستعماله مع لفظ أخر ، السجع والقافية والتجنيس والترصيع وغير ذلك من أصناف البديع .

وقد نشأ علم يقال له الانشاد ، وهو يختلف عن الغناء وعن ترتيل القرآن الكريم ، ولكن الوظيفة في النهاية تتشابه معهما ، فهو يهدف ايضا الى امتاع الاذن عن طريق انشاد الشعر ، بكيفية تجعله عذبا موسيقيا ، وهذه الكيفية تسيطر على القصيدة فيضحى من أجلها ببنية المفردات وبالقواعد الاعرابية .

---

(٦) المزهر ١/٤٠٦ .

وتحت عنوان « باب وجوه القوافي في الانشاد » (٧) ، يورد سيبويه امثلة يتحكم فيها الانشاد في الكلمة ، فيزيد عليها ، او يغير من حركة اعرابها ، وهو شيء مقبول عند العرب ومستساغ في الذوق ، لان الشعر وضع للغناء والترنم كما يقول سيبويه .

فقد يدفعهم الترنم الى مد حركة الروى ، فيزيدون الواو أو الياء أو الالف بحسب الحركة ، فيقولون في الجر : —

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلي .

ويقولون في النصب : —

فبتنا تحيد الوحش عنا كأننـــا قتيلان لم يعلم لنا الناس مصرعا(٨)

ويقولون في حالة الرفع : —

هريرة ودعها وان لام لائمـــو ..

وقد يدفعهم الانشاد الى ان يصلوا القافية بالنون فيقولون : —

يا أبتا علّك او عساكن (٩) .

يا صاح ما هاج الدموع والزّرفَن .

من طلل كالأتحمى انَهجَن (١٠) .

---

(٧) الكتاب ٢٠٤/٤ .

(٨) تحيد : تميل او تنفر . يذكر انه خلا بمن يحب بحيث لا يطلع عليهما غير الوحش والبيت ليزيد بن الطثرية وهو ابن عنز بن وائل والطثرية امه ، قتل سنة ١٢٦ هـ .

(٩) من رجـز رؤبة ، وهو ابو محمد رؤبة بن العجاج ، كان مقيمـا بالبصرة وخرج الى البادية وتوفى بها سنة ١٤٥ هـ .

(١٠) من رجز العجـاج . والاتحمى : ضرب من البرود موشى ، انهج انهاجا : اخلق وابلى : والعجاج هو : عبدالله بن رؤبة لقى ابا هريرة وسـمع منه الحديث .

وقد يحركون في الانشاد الساكنَ أو المجزومَ فيقولون : —

أغرك مني أن حبك قاتلـي وانك مهما تأمري القلب يفعل
متى تأتنا نصبحك كأسا روية وان كنت عنها غانيا فاغن وازدد (١١)

يورد سيبويه آيات من القرآن الكريم جاء المصدر فيها على غير فعله مثل قوله تعالى : — « وتبتل اليه تبتيلا » (١٢) وتبتل مصدر بتل وليس تبتل .

ويذكر سيبويه السبب في ان معنى الفعلين واحد (١٣) ، فيجوز ان يتناولها المصدر ، وفي ظني ان السبب أبعد من ذلك ، ويرتد الى الايقاع الموسيقى الذي تحرص عليه الآيات بشدة ، ان الفواصل في سورة المزمل تقتضي هذا الوزن حتى لو أدى الى الاطاحة بالقاعدة ، فهناك ياء مد قبل الفاصلة في الآية التي قبل هذه الآية ، وفي الآية التي بعدها ايضاً ، فناسب الحرص على الاطراد الموسيقي حتى لو ادى ذلك الى الاطاحة بالقاعدة : (ان الحرص على موسيقية الآيات ، او مناسبة الفواصل كما يقول السيوطي (١٤) شيء هام ، يضحى من اجله بالقواعد المتعارف عليها) ويعدد السيوطي وجوها كثيرة خالفت فيها المناسبة الاصول ، ومن ذلك : —

١ — حذف ياء المنقوص المعرف نحو : الكبير المتعال — يوم التناد .

٢ — حذف ياء الفعل غير المجزوم . نحو : والليل إذا يسر .

٣ — حذف ياء الفعل غير المجزوم . فكيف كان عذابي ونُذُرِ — فكيف كان عقَابِ .

---

(١١) البيت لطرفة : نصبحك من الصبوح : وهو شرب الغداة . والروية : المروية .
(١٢) ٨/ المزمل .
(١٣) الكتاب ٨١/٤ .
(١٤) الاتقان ٩٩/٢ .

٤ – زيادة حرف المد نحو : الظنونا – الرسولا – السبيلا .

٥ – صرف ما لا ينصرف نحو : قوارير ، قواريرا .

٦ – ايراد الكلمة غير مطابقة في الاسمية او الفعلية – نحو : ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الاخر وما هم بمؤمنين . ولم يقل ولم يؤمنوا .

٧ – ايراد القسمين غير مطابق . نحو « وليعلمن الله الذين صدقوا . وليعلمن الكاذبين ولم يقل : والذين كذبوا » .

٨ – الاستغناء بالافراد عن التثنية نحو فلايخرجنكما من الجنة فتشقى .

٩ – الاستغناء بالافراد عن الجمع نحو : واجعلنا للمتقين اماما . ولم يقل : ائمة .

١٠ – الاستغناء بالجمع عن الافراد نحو : لا بيع فيه ولا خلال ، ولم يقل : خل .

١١ – امالة مالايمال كآيات سورة طه وسورة النجم .

١٢ – الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، نحو : ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما واجل مسمى .

١٣ – وقوع مفعول موقع فاعل . نحو : حجابا مستورا – كان وعده مأتيا .

١٤ – وقوع فاعل موقع مفعول ، نحو : عيشة راضية .

١٥ – اثبات هاء السكت نحو : ماليه – سلطانية .

١٦ – العدول عن صيغة الماضي الى صيغة الاستقبال ، نحو : ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون .

١٧ – تغيير بنية الكلمة نحو : وطور سنين ، واصلها سيناء .

★ ★ ★

تحدث ابن فارس عما سماه المحاذاة في اللغة العربية ، وذلك ان تجعل كلاما بحذاء كلام « فيؤتى به على وزنه لفظا ، وان كانا مختلفين ، فيقولون : الغدايا والعشايا ، فقالوا الغدايا لانضمامها الى العشايا ، ومثله قولهم : اعوذ بك من السامة واللامة ، فالسامة من قولهم سمت النعمة اذا خصت ، واللامة أصلها من ألمت ، ولكن لما قرنت بالسامة جعلت في وزنها » (١٥) .

ان ابن فارس ينبه الى الفكرة الجمالية ، التي تحرص عليها تراكيب اللغة العربية ، حتى لو أدت الى مخالفة القاعدة ، فالغداة لا تجمع على الغدايا ولكنهم لما قرنوها بالعشايا ، جاءت على وزنها لكي تتناسب معها ، واسم الفاعل من المت انما يكون « ملمة » ، ولكنها جاءت على وزن اللامة لتتناسب مع « السامة » .

ويضرب ابن فارس امثلة للمحاذاة ، وقعت في القرآن الكريم فقوله تعالى « ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم » (١٦) ، وردت اللام في كلمة فلقاتلوكم من باب المحاذاة مع لسلطهم ، مع أن الاصل هو « ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم » فاللام من المفروض ان تقع فقط في جواب « ولو » ولا حاجة في ان تقع ايضاً في المعطوف على جواب لو .

ويقول تعالى « لأعذبنه عذاباً شديدا او لأذبحنه أو ليأتيني » (١٧) فالفعل الاخير ليس موضعا للقسم ، فلم يكن ليقسم على الهدهد أن يأتيه بعذر ، ولكن لام القسم قد دخلته ، لكي يتناسب مع الفعلين الآخرين .

★ ★ ★

(١٥) الصاحبي ص ١٩٥ .
(١٦) ٩٠ / النساء .
(١٧) ٢١ / النمل .

وقد تحدث اللغويون عن ظاهرة سموها « الاتباع » وهي أن تأتي الكلمتان او اكثر على وزن واحد ، والكلمة الثانية او الثالثة لا تفيد معنى جديد ، ولا تستقل عن الكلمة الاولى ، بل هي تأتي تابعة لهـا ، وكأنه تعبير ومصطلح يحفظ برمته وهـو قد يأتي من كلمتين مثـل : قسيم وسيـم ، ونسيل بسيل ، وجديد قشيب ، وشيطان ليطان ، وعطشان نطشان ، واسوان اتوان ، وحسن بسن ، وساغب لاغب ، وخب ضَب ، وخراب يباب ، وحياك الله وبياك ، وحار يار .

وهو قد يأتي من ثلاث كلمات مثل : حسن بسن قسن ، ولا بارك الله الله فيك ولا تارك ولا دارك ، وغض بض نض ، وحار جار يار ، واجمعون اكتعون أبضعون .

ان هذه الظاهرة لافتة للنظر في اللغة العربية ، وقد الف فيها ابن فارس كما يقول السيوطي معجما مستقلا اسماه الاتباع والمزاوجة (١٨) واختلف اللغويون في تفسيرها وان كانوا يرونها تختلف عن الترادف وعن التأكيد ، فالكلمة الثانية لا تستقل عن الاولى ويجب ان تأتي على وزنها ، انهم يكتفون بتعليلها تعليلا سريعا فيقولون « هو شيٌ نتد به كلامنا (١٩) أي نثبته .

ولكن ما مقصود التثبيت هذا ، انه في ظني تثبيت موسيقى ، فحرص اللغة على الايقاع يجعلها تهتم بالموزونات المتتالية ، التي تستريح اليها الأذن ، حتى لو لم تكن لها اضافة كبيرة في المعنى ، فالايقاع شيٌ اساسي تهدف اليه اللغة العربية وتجلب الترادف والتكرار والاتباع والزوائد لكي تحقق هذا الهدف :

★ ★ ★

(١٨) المزهر ٤١٤/١ . وقد نشره بروني سنة ١٩٠٦ م .
(١٩) المرجع السابق ٤١٤/١ .

تولي الفصحى عناية كبيرة بالصوت الانساني ، فهناك الترخيم والمد اللين وغير ذلك من زيادات وحذف وتغييرات ، يقصد بها التنغيم الصوتي ، او على حد تعبير ابن جنى يقصد بها الاتساع في الكلام (٢٠) .

ان الزيادات في الفصحى تؤدي وظيفة جمالية ، فهي ليست شيئا عبثاً يمكن الاستغناء عنه ، ولكنها تأتي بما يتفق وطبيعة هذه اللغة ، التي تميل الى التنغيم الصوتي ، واكتساب الصوت الانساني درجات ، تستطيع ان تعبر عن الحالة الشعورية .

وقد تنبه القدماء الى هذه الوظيفة وشرحوها في اكثر من موضع ، فحين يتحدثون عن الف الندبة مثلا يذكرون وظيفتها ، فهي قد زيدت « لمد الصوت واظهار التفجع على المندوب » (٢١) ، او « لان الندبة كأنهم يترنمون فيها »(٢٢)

وحين يتحدثون عن المد الذي يجاور آخر الكلمة ، يذكرون له وظيفة جمالية ، يشرحها ابن جنى فيقول : « انما جيء بالمد في هذه المواضع لنعمته وللين (٢٣) الصوت به وذلك أن آخر الكلمة موضع الوقف ومكان الاستراحة والأوان (٢٤) فقدموا امام الحرف الموقوف عليه ما يؤذن بسكونه وما يخفف من غلواء الناطق واستمراره على سنن جريه وتتابع نطقه ، ولذلك كثرت حروف المد قبل حروف الروي – كالتأسيس والردف – وليكون ذلك مؤذنا بالوقوف ، ومؤديا الى الراحة والسكون ، وكلما جاور حروف المد

---

(٢٠) المنصف ص ١٤ .
(٢١) المنصف ص ١٥ .
(٢٢) الكتاب ٢/٢٢٠ .
(٢٣) النعمة بفتح النون : في الاصل الترفة والمراد رقة الصوت .
(٢٤) الدعة والسكون .

الروي كان آنس به وأشد إنعاماً لمستمعه » (٢٥) .

ويضرب ابن جنى في موضع آخر (٢٦) أمثلة للردف ، الذي يلزم الضرب الثالث من الطويل ليكون عوضا من لام مفاعيلن ، وليدل على لين الصوت ، مثل :

اقيموا بنى النعمان عنا صدوركم ... والا تقيمـو اصاغـرين الـرؤوسا
لعمرك اني في الحياة لزاهــد ... وفي العيش ما لم أألق ام حكيمِ
جزوني بما ربيتهم وحملتهـم ... كـذلك مـا إن الخطوب دوالِ

* * *

وقد تحدث كثير من اللغويين عن الكلمة الفصيحة (٢٧) وهم لا يعنون بالفصاحة هنا المستوى الادبي ، الذي هو خطوة ثانية بعد صحة اللغة وانما يعنون المستوى اللغوي ، ومن هنا درست في كتب البلاغة كمقدمة ، ولم تدرس في صلب الابواب التقليدية .

وكان خلو الكلمة من تنافر الحروف ، ومن الثقل على السمع ، من شروط فصاحتها ، ومن هنا أخذوا يتحدثون عن الحروف الثقيلة ، وعما يكثر استعماله من الحروف ، وعن رتب الفصاحة في الكلمة الواحدة ، التي رفعها بعضهم الى اثنتي عشرة رتبة في الكلمة الثلاثية (٢٨) ، وهــم يعنون بذلك مخارج الحروف في الكلمة الواحد ة ، والانتقا ل من مخرج ا لى آخر ،

---

(٢٥) الخصائص ١/٢٣٤ . والتأسيس : الف يكون بينهما وبين الروى حرف متحرك وذلك كالالف من كلمة « قوائم » مثلا . اما الردف : فهو حرف من حروف العلة يقع قبل حــرف الروى مباشرة مثــل « تجافينا » او « الجيب » أو « هبوب » .
(٢٦) المنصف ص ١٤ .
(٢٧) المزهر ١/١٨٤ .
(٢٨) المزهر ١/١٩٧ .

كالانتقال من الاعلى الى الاوسط الى الادنى ، ويرون ان هذا احسن التراكيب واكثرها استعمالا .

ان الحديث عن احسن الابنية في الكلمة الواحدة شيٌ قد اهتم به اللغويون ، وحددوه على اساس صوتي ، فالحروف « اذا تقاربت مخارجها كانت اثقل على اللسان منها اذا تباعدت ، لانك اذا استعملت اللسان في حروف الحاق دون حروف الفم ، ودون حروف الذلاقة ، كلفته جرسا واحدا وحركات مختلفة ، الا ترى انك لو الفت بين الهمزة والهاء والحاء لوجدت الهمزة تتحول هاء في بعض اللغات لقربها منها ، نحو قولهم في « أم والله » هم والله ، وكما قالوا في « أراق » هراق الماء ، ولو جدت الحاء في بعض الالسنة تتحول هاء (٢٩) .

ان السيوطي في نهاية النص السابق يشير الى فكرة ، هي المسؤولة عن التغيرات التي تحدث في بنية الكلمة ، وهي فكرة تقريب صوت من صوت ، فقد يأتي صوتان متقاربان في المخارج ، وقد يحدث ذلك صعوبة في النطق ، يخرج الكلمة عن فصاحتها . هنا يأتي دور الادغام ، والامالة ، والابدال ، والقلب ، والاعلال والاشمام ، والروم ، وغير ذلك من مصطلحات تتردد في كتب اللغة ، وهي تعني في النهاية ، تقريب صوت من صوت ، لكن تصبح الكلمة في النهاية سهلة في النطق خفيفة على السمع .

وتحت عنوان « الادغام الاصغر » (٣٠) يقدم ابن جنى صورا مختلفة لتقريب الصوت من الصوت ، فمن ذلك الامالة في نحو عالم ، ففتحة العين تقرب الى كسرة اللام والالف تميل الى الياء .

---

(٢٩) المزهر ١٩٢/١ : الحروف المذلقة : حروف طرف اللسان والشفة وهي : اللام ، والراء ، والنون ، والباء ، والفاء ، والميم .
(٣٠) الخصائص ١٣٩/٢ .

– ومن ذلك ان تقع فاء افتعل صادا أو ظاء فتقلب لها التاء طاء نحو اصطبر واضطرب ، واطرد ، واظطلم .

– ومن ذلك ان تقع فاء افتعل زايا او دالا او ذالا فتقلب التاء دالا ، نحو ازدان ، وادعى ، واذدكر .

– ومن ذلك تقريب الصوت مـع حروف الحلق ، نـحو ، : شعير ، وبعير ، ورغيف .

– ومن ذلك تغير الحركات الاعرابية في مثل قولهم « الحمدُ لِلّه » « والحمدِ لِلّه » .

– ومن ذلك تقريب الحرف من الحرف في مثل قولهم مزدر وتزدير بدلا من مصدر وتصدير .

– ومن ذلك الاشمام في مثل قيل وغيض بأن نأتي بحركة الفاء بين الضم والكسرة .

وتحت عنوان « الادغمام » (٣١) يتحدث سيبويه عن مخارج الحروف ، مهموسها ومجهورها ، واحوال المهموس والمجهور ، وهنا نجد ان التنوع الصوتي في الحروف يرتفع بهـا عن الابجدية العادية ، والتي هي عـدد حروفها ثمانية وعشرون ، فتصل الى خمسة وثلاثين حرفا ، مثل النون الخفيفة ، والهمزة التي بين الالف التي تمال امالة شديدة ، والشين التي كالجيم ، وغير ذلك من حروف تتولد بسبب التنوع في الصوت .

بل وترتفع الحروف الى اثنين واربعين حرفا ، اذا اضفنا بعض حروف غير مستحسنة في القرآن أو الشعر ، وغيـر كثيرة على السنة العرب مثـل الجيم والكاف ، والضاد الضعيفة ، والصاد التي كالسين .

---

(٣١) الكتاب ٤/٤٣١ .

ويتحدث سيبويه هنا عن نوعية الحروف الصوتية ، فيعطي للحروف صفات بحسب نوعيتها الموسيقية ، فهناك الحرف الشديد ، والرخو ، والمنحرف ، واللين ، والهاوي ، والمطبق ، والمنفتح . ويستمر سيبويه في « باب الادغام في الحروف المتقاربة التي هي من مخرج واحد » (٣٢) ، فيتابع الحروف التي تقاربت في الصوت فيرى ان ادغامها يجعلها سهلة في النطق خفيفة على السمع .

واذا اتخذنا النون مثلا ، فسنجد سيبويه بعدد الحروف التي تدغم معها مثل الراء والباء والواو والياء . . . الخ . وهو في كل ذلك يتابع قلب النون الى آخر وفيما اذا كانت النون بغنة أو بلا غنة وفيما اذا كانت تخرج من الخياشيم أو من غيرها .

* * *

ان فكرة الحس الجمالي شيء متأصل في اللغة وبلغت قوتها ان فرضت سلطانها على كثير من القواعد المتعارف عليها ، فاللغة العربية تؤثر الايقاع اذا تعارض مع القاعدة ، ويكاد يكون ذلك قاعدة رئيسية ، ان الجمال فوق كل شيء . الفاصلة في القرآن الكريم تهتم بأن ترضي الاذن ، ولو أدى ذلك الى تحطيم قاعدة صرفية او نحوية . وفكرة الانسجام الصوتي يمكن ان تضحي بالقواعدالاعرابية .

ان الكثير من الظواهر اللغوية التي تبدو حشوا في اللغة العربية ، يمكن ان تجد تفسيرها في فكرة الحس الجمالي ، فالتكرار والترادف والاحرف

(٣٢) الكتاب ٤/٤٤٥ .

الزائدة لا يدل كل ذلك على لفظية وثرثرة على حساب الجوهر والمعنى ، بل هو يصدر عن حس موسيقي يعطي للاذن راحتها ، ويوفر لها وسائل الايقاع ، ولهذا السبب وصف القدماء اللغة العربية بالاتساع والنصوع .

ان فكرة الاتباع ليست تعني حشوا لفظيا وتعدادا لالفاظ لا غناء فيهـا ، ولكنها شيٌ نتدبه كلامنا كما قال القدماء ، وهم يعنون انها ظاهرة جمالية ، تجعل الكلام سهلا وتمكن الاذن من التقاطه .

ان ظاهرة الاتباع ترتد الى فكرة الوزن في اللغة العربية ، وهي فكرة جوهرية يقوم عليها علم الصرف ونظام المعاجم العربية ، وهي تحيل اللغة العربية الى وحدات موسيقية ، ترتبط برباط الايقاع والمعنى الرئيسي ، الألوان مثلا على افعل ، الصوت على فعيل ، الحركة على فعلان ، وكل ذلك يحيل اللغة الى مجموعات صوتية متجانسة ، ولكنها لا تتحول الى قوالب مصمتة ، فداخل كل مجموعة يحدث التنوع ، ان مجموعة « افعل » تضم مثلا الاحمر والاسود والابيض والازرق ، وغير ذلك مما يحدث علاقة بين المثال والوزن والجوهر من ناحية ، والمتعدد والالفاظ والافراد من ناحية اخرى ، او بعبارة مختصرة « بين المجرد والمزيد » .

وهي جمالية خاصة ترضي الذوق العربي ، وتستثمر الى اقصى حد النزعة السامية ، التي تحتفي بحاسة السمع اكثر من حاسة البصر ، ان اللغة العربية تمتع حاسة الاذن ، وتلجأ الى المد واللين والزيادة والقلب والترخيم والادغام والاعلال ، وغير ذلك من ظواهر يقصد بها بالدرجة الاولى ، تنويع الصوت الانساني وجعله سهلا على حاسة الاذن ، وان حروف اللغة العربية ليست هي الابجدية العادية ولكنها تنويعات على تلك الابجدية ، فهناك الحرف المهموس والمجهور والشديد والرخو والمنحرف والمكرر واللين والهاوي والمطبق والمنفتح ، وهناك الحروف التي تقلب الى حروف اخرى من اجل التقارب في المخرج ، مما ذكره سيبويه تحت عنوان « باب الادغام في الحروف

المتقاربة التي هي من مخرج واحد (٣٣) .

ان العناية بالصوت الانساني ، هي المسؤولة وراء كثير من الفنون الاصيلة التي هي تعبر عن ذوق عام ، مثل الانشاد والترنم وترتيل القرآن الكريم .

ان اللغة العربية تكاد تكون شيئا فريدا بين لغات العالم ، فهي ليست مجرد وسيلة اتصال ونقل خبرات ، بل هي الى جانب ذلك لغة جمالية تجسد الحس الايقاعي عن طريق ظواهر صناعية مثل تغريب الصوت والزيادة والحذف والتغيير والقلب والادغام ، وغير ذلك من صناعات تقترب بها من لغة الصفوة المنتقاة .

★ ★ ★

(٣٣) الكتاب ٤/٤٤٥ .